

تفسير ابن كثير

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال { اذكر نعمتي عليك } أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر يجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء { وعلى والدتك } حيث جعلت لك لها برهانا على براءتها مما نسبه الطالمون والجاهلون إليها من الفاحشة { إذ أيدتك بروح القدس } وهو جبريل عليه السلام وجعلتك نبيا داعيا إلى الله في صدرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيرا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي ولهذا قال { تكلم الناس في المهد وكهلا } أي تدعوا إلى الله الناس في صدرك وكبرك وضمن تكلم تدعوا لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب . وقوله { وإذا علمتك الكتاب والحكمة } أي الخط والفهم { والتوراة } وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك وقوله { وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني } أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك فتكون طيرا بإذني أي فتنفح في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيرا ذا روح تطير بإذن الله وخلقه .

وقوله تعالى : { وتبئ الأكمه والأبرص بإذني } قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغني عن إعادته وقوله { وإذا تخرج الموتى بإذني } أي تدعوه فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا محمد بن طلحة يعني ابن مصرف عن أبي بشر عن أبي الهذيل قال : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركتعين يقرأ في الأولى { تبارك الذي بيده الملك وفي الثانية { الم * تنزيل } السجدة فإذا فرغ منها مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخرى : يا حي يا قيوم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يا رب وهذا أثر عجيب جدا .

وقوله تعالى : { وإذا كففتبني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيانات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين } أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلى وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا أو يكون هذا الامتنان واقعا يوم

القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله { وإذ أوحى إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي } وهذا أيضا من الامتنان عليه عليه السلام بأن جعل له أصحابا وأنصارا ثم قيل : إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى : { وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه } الاية وهو وحي إلهام بلا خلاف وكما قال تعالى : { وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا } الاية وهكذا قال بعض السلف في هذه الاية { وإن أوحى إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وشهدنا بأننا مسلمون } أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا قال الحسن البصري : ألمهمهم الله ذلك وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإن أوحى إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بما وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوا فقلوا { آمنا بما وشهدنا بأننا مسلمون }